الهندوسية وآلهتها الكثيرة وإلهها الواحد

ترجمة وإعداد: وفيق فائق كريشات*

قال: «أجل، لكن، يا ياجْنيافالْكيا، كم الآلهة؟» «ثلاثة وثلاثون..» قال: «أجل، لكن، يا ياجنيافالكيا، كم الآلهة؟» «واحد!»

أوبانيشاد بريهادارانياكا ٣، ٩، ١

في الترجمات الإنكليزية تُنقل ألفاظ سنسكريتية مختلفة تبلغ نحو عشرين لفظاً بلفظ إنكليزي واحد هو god «إله». فلننظر في بعض هذه الألفاظ كي نجد كيف للهندوس أن يجمعوا بين الآلهة الكثيرة وبين الاعتقاد بإله واحد.

الديفات الفيدية(١)

حين تتحدث الأعمال الإنكليزية الموضوعة في الدين الفيدي عن آلهة فإنّها تستعمل هذا المصطلح بوصفه ترجمة للفظ الفيدي ديفا deva أو ديفاتا devata.

ويدخل في عداد ذلك الآلهة الأحد عشر السماوية والآلهة الأحد عشر الجوية، والآلهة الأحد عشر الأرضية. لقد فوجئ ف.ماكس مولر حتّى الذهول بهذه الحقيقة البينة ألا وهي أنّه في عدد من الترانيم الفيدية يُثنى على ديفا المخاطب في الأنشودة بوصفه الواحد دون غيره، والأعلى والأعظم، وأنّ ذلك الثناء لا يخص به ديفا واحد دون غيره، بل يطلق على ديفات شتى في ترانيم شتى. لم يكن هذا الأمر موافقاً للمفهوم الكلاسيكي وهو الإيمان بآلهة كثيرة polytheism من أجل ذلك نحت مولر مصطلحاً جديداً هو الإيمان بإله واحد(٢) henotheism (من اللفظ اليوناني hen(os) ومعناه «واحد») لتمييز هذا الدين من الإيمان بالإله الواحد(٣) monotheism دين الكتاب

---

* كاتب ومترجم سوري.

المقدس الذي جاء به الوحي. ليس ديفا الهندوسي هو الله. في كثير من الأحوال تجوز ترجمة ديفا ترجمة فضفاضة بلفظي «كائن إلهي». معنى لفظ ديفا إيتمولوجياً[٤] هو «المُشرق، المحمود»؛ وعليه فإننا نجد لفظ ديفا يحيط بكل ماله شأن بما فوق الطبيعة: كل الأشخاص والصور والسيرورات والمشاعر والأنغام والكتب وبحور الشعر- كل ما يحتاج في تفسيره إلى أصل مفارق أو مكانه مفارقة- كله جميعاً يدعى، في هذا الموضع وذاك، ديفا أو ديفاتا. إنّ أفعال شتى أعضاء الجسم، والرموز والمقاطع الصوتية تفسر بوصفها ديفا. نجد في الدين الفيدي أنّ المصطلح قد استعمل على نحو مقيّد نسبياً، لكن حتّى هناك ليس لنا أن نسوّيه بلفظ إله، بل بالقوى مما فوق الطبيعة بالمعنى العام[٥].

لقد صار الأنثربولوجيون يعون أهمية ما في أديان القبائل من فكرة «القوة». حاول آر.إن.دانديكر أن يبين أنّ وراء العبادة الفيدية لديفا تقوم فكرة عن قوة قصوى تسري في الكل، لكل ديفا شركة فيها لكنها ليست مطابقة لها على التمام. وعلى ما ذهب إليه فإنّ أكثر الديفات الفيدية قد خُلقت من أجل الأساطير وليست الأساطير هي التي خلقت من أجل الديفات. وعليه فإنّ المثيولوجيا هي الأصل والديفات هي الفرع.

لقد كان للمدعوين ريشي[٦] المذكورين في كتب فيدا رسالةً فبلّغوها بصور خلقوا لها أشخاص ديفا ذات التعيين. وعلى هذا النحو لنا أن نعد المثيولوجيا الفيدية مثيولوجيا تطورية، وهذا ينطوي ضمناً على تغيّر في خصيصة كل ديفا بحسب الظروف المتغيرة. مما يميز متغير شخص ديفا في الأهمية هو الفاعلية الأساسية الباطنة التي ليست الديفات المفردة إلا تعابير لها وتجليات؛ النظير الفيدي لقوة مانا هو أسورا، وهو مشترك بين الكائنات بأسرها، وخصوصاً منها الديفات. ذلك هو أيضاً تفسير ما للديفات الفيدية من وجه شخصي إنساني عظيم التغير والمرونة. ندقق اللفظ فنقول إنّه ليس من بانثيون[٧] فيدي بالمعنى الذي للبانثيون اليوناني أو الروماني.

لم يكن للرائي الفيدي ما لأهل الزمان الحديث من وجهة نظر. مع أن «أَغْني» هو المصطلح الموضوع «للنار» بالمعنى الأكثر عمومية، فإنّ حقيقة أَغْني في العقل الفيدي الديني ليست هي مجرد السيرورة الكيميائية لكربنة المادة العضوية التي يقرنها علماء العصر الحديث بمصطلح النار. يرى ريشي في النار ديفا، أعني وجهاً مفارقاً يجعل «أَغْني» ملائماً للاستعمال من جهة ما هو تعبير فيه تلويح بشيء قائم وراء الحقيقة المادية التي تبحث الكيمياء الحديثة في أمرها.

أغْني هو ديفا، وليس هو «تشخيصاً لظاهرة الطبيعة» كما كان يحلو للعلم الغربي في القرن التاسع عشر أن يصفها، بل هو تجلّ لقوة مفارقة. إنّ للحقيقة الفيزيائية للنار من البيان والضرورة ما يجعل الهندوسي لا يفكر في إقصائها إلى عالم روحاني؛ بيد أنّ فيها شيئاً محسوساً سوى ما تجده الحواس- يلهَم ريشي «رؤية» اللغز القائم وراء الواقع المرئي بأسره ويلهم التعبير عنه.

لم يعثر العلم الموضوعي على الديفات ولن يعثر على الله في الكون الفيزيائي؛ إنّ اكتشاف الحقيقة الإلهية التي فيه يحتاج إلى مرهف إدراك واحد من المسمين كاﻟ، أعني الشاعر أو النبي.

بالتسليم إنّ ترانيم ريغ فيدا، بصورتها الحاضرة، هي نسخة قديمة منقحة عن نص أقدم منها، وبدوام الذكر لما قلناه آنفاً عن الخصيصة التطورية للميثولوجيا الفيدية، نرى من المقبول القول بأنه في كل مرحلة من مختلف مراحل الدين الفيدي كان يقوم في قلب هذا الدين ديفا بعد ديفا. في نص فيدا الذي في زماننا الحاضر نجد أنّ صاحب الصدارة فيه هو إندرا، وهو الذي قدِم إلى الدين الفيدي متأخراً ومن العسير تعيينه بدقة لاتخاذه ما لا يقل عن ثلاثة أدوار مختلفة: إندرا القوة الكونية، وإندرا القائد الحربي للآريين، وإندرا البطل القديم الأسطوري الذي قتل التنين.

إنّ الكتب الشعبية الموضوعة في الدين الهندي ما تزال تحمل الكليشيه من القرن التاسع عشر التي تقول بأنّ إندرا هو «تشخيص للعاصفة الممطرة» أو «إله الطقس»(٨). بقطع النظر عمّا تنطوي عليه هذه الفكرة من خطأ في فهم طبيعة ديفا، فإنّ علينا أن نرفضها أيضاً بسبب أنّ «أكثر أوصاف إندرا تدور حول محاربة ڤريترا ونصره عليه. إنّ الفهم الصحيح لهذه النقطة سوف يتيح لنا، إذاً، نقطة ملائمة للشروع في دراسة نقدية لشخصية إندرا وخصيصته». التي تميط هذه الأسطورة اللثام عنه هو أن إندرا، بخلاف سماته الفردية، هو تجلٍّ للقوة الإلهية المخلّصة التي تهزم القوة الشيطانية الضدية.

في ريغ فيدا أكثر من ألف ترنيمة يُخاطب في نحو ربعها إندرا دون سواه. مع أننا لن نعالج جميع المسائل التي تحيط بطبيعة إندرا معالجة الاستيعاب، فإننا نستطيع أن نخرج بانطباع عن طبيعة الحب الفيدي لإندرا إذا استشهدنا بترنيمة واحدة يعبّر فيها عن عظمة إندرا. الألقاب التي تطلق على إندرا في هذه الترنيمة، ومنها ماغْهافان، ماهافيرا، ديفا إكا، راجا هي صفات جوهرية من صفات الله العلي، هي

ألقاب تطلق على الله المخلص في الأطوار المتأخرة من الدين الفيدي. والحق، إنّ الترانيم تلوّح -وهي تصف شخصية إندرا- بوقائع تاريخية وشخصيات تاريخية، بيد أنّ العدد الإجمالي للصفات التي تطلق عليه هي أكثر من مجرد التمجيد لبطل محارب.

إنّ في قتل فريتْرا على يد إندرا شيئاً سوى انتصار المحارب على عدوه، شيئاً يشي لنا بنفسه، على ما يظهر، ونحن نقرأ أنّ النتيجة كانت هي أنّ إندرا «قد أطلع الشمس للجميع كي يبصروا». إنّه عمل الله العلي أن «يلاحق عصبة الشياطين الأذلاء»، وأن «يحيط بالعالمين من كل الجهات»، وأن «يفصل بين النهار والليل».

الله العلي وحده هو الذي «تركع أمامه حتى السماء والأرض»، والذي «بلا عونه لن ينال الفتح شعبنا»، والذي هو «واهب الطعام والمال»، والذي هو «معين الإنسان في الكبر، والرجاء الذي لا يخيب، وصديق أصدقائنا، والغني بالمناقب العظيمة». إنّ سلطته بوصفه الله العلي قد أرسيت أخيراً بنصره على الشيطان الذي لم يكن يستطيع أن يهزمه بشر. إنّ الصفات التي تسبغ على إندرا إنما يصبح لها معنى إذا فهمناه كرمز لله العلي وتجلٍّ له(٩)، ولا سيما أنّ نفس الصفات تسبغ على الديفات الأخرى، والمناقب نفسها تعزى إلى أَغْني، وإلى سوما، وإلى فارونا وسواهم. «يدعونه إندرا، وميترا، وأَغْني، وهو غاروتمان ذو الجناحين السماويين. إنّ الحكماء يسبغون ألقاباً كثيرة على الذي هو واحد.»

ليس إندرا إلا اسماً من الأسماء التي يدعى بها الله المخلص. في البدء كان الأعلى، ولم يتخذ اسم إندرا إلا في ظروف بعينها. الأعلى لا اسم له- الناس يطلقون عليه الأسماء، فيصفونه أوصافاً شتى بحسب الفئات المشتقة من الأفعال الكونية أو من التاريخ، أو من خبرتهم أنفسهم.

يبرز إندرا بوصفه قوة تنمو وتتمو بالقرابين والمانْترات(١٠). إنّ الديفات أيضاً مفتقرة إلى الفانين: الدين طريق إلى القوة ذو مسلكين!

بعد إندرا يأتي أَغْني من حيث عدد الترانيم التي يخاطب بها؛ إنّ له صلة وثيقة بتقريب القرابين وهذا أمر عظيم الشأن! إنّه المخاطب في أول ترنيمة في ريغ فيدا سامهيتا وبنحو مئتين غيرها. أَغْني-النار(١١) هو الواسطة التي تحول الهبة المادية للقربان إلى جوهر روحاني يكون للآلهة نصيب منه ومنه تستمد قوتها.

واحدة من الترانيم الجميلة التي تترك أكبر الانطباع يُخاطب بها سافيتري، «الملهم»، الشمس، الضياء، الذكاء، رونق الجمال.

إنّ السماء والأرض يترنّم لها كديفات؛

«الأرض الأم» أيضاً تفرد بالذكر؛ المسمون ماروت، وهم الرياح العاصفة، هم زمرة من الديفات يتوسل إليها مراراً؛ الأنهار والمياه تظهر بوصفها آلهة؛ شراب سوما ونبتة كوشا، الملازمان للقرابين، يذكران بوصفهما من الديفات.

ليست الديفات هي المثل الأخلاقية التي يُندب البشر إلى احتذائها، ولا تعدّ مشرّعة للشرائع[١٢]. تتحدث الترانيم عن ريّتا، «الشريعة»، فتفردها عن الديفات، فتجعلها قائمة بمعزل عنها وفوقها كقوة فعالة غير شخصية ولا تقع في الخطأ. للفظ ريتا صلة بلفظ ريتو، الفصول، أعني الدورة المنتظمة من الربيع والصيف والمطر والخريف والشتاء. عدا هذا، لنا أن نفهم ريتا كمبدأ لنظام قائم وراء الأشياء والأحداث بأسرها. إنّ ريتا يلقي بظلاله على نحو ما، على كل من كارمان وبراهمان المتأخرين.

يتوسل إلى بضعة ديفات، ولاسيما ميترا وفارونا، من جهة ما هي أوصياء على الشريعة، لا خالقة لها. كذلك يُعتقد فيها أنها مَن يثيب على الخير ويعاقب على الشر. لقد بيّن هـ.لويدرز أنّ فارونا كان في أصله هو المحيط الذي يطوق العالم[١٣]، وبه كانت تُعقد الأيمان في الزمان السابق على التاريخ. في أثناء الحقبة الهندية ـ إيرانية تطور مفهوم ريتا فصارت هي «الحقيقة» من جهة ما هي قوة حاكمة. جُعل عرشها في المحيط وغدا فارونا الحافظ لها.

لقد فقدنا الكثير من مقدرتنا على تقدير الطبيعة من جهة ما هي رمز إلهي، وهذا الأمر يجعل الكثير منا غير قادرين على تقدير العبادة الفيدية لديفا من غير استعمال الفئات المأخوذة من العالم الممكن.

إنّه ليس مجرد أمر فيه بقية من خرافة أنّ الهندوس في يومنا هذا يتوجهون بالثناء والصلاة إلى الشمس الطالعة في وقت صلاة الصبح عندهم. لعل بين المتعبدين للشمس من الهنود الكثير من المتعلمين تعليماً حديثاً الذين يعلمون الخصائص الفيزيائية للشمس، من درجة حرارة سطحها وتركيبها الكيميائي.

ليس المخاطب بالعبادة هو الجرم الفلكي، ولا فكرة مرموزة، بل سوريا-ديفا، أعني الواقع الميتافيزيقي الذي من خلاله يصبح وجه من وجوه الواقع الأعلى وثيق الصلة ببني الإنسان.

قد يرى المرء مراراً وتكراراً شخصاً تقياً يحيي، متعبداً، الضوء الكهربائي بعد إضاءته في المساء. يرى الفلاح الهندي في البقرة عرشاً لكثير من الديفات ويعبدها؛ إنّ عمال المصانع يتقدمون بالعبادة إلى الآلات في أيام معلومات، إلى ديفا التقانة التي بأفعالها يعيشون.

لعلهم جميعاً يدركون على نحو ما، ما لم يدركه بعدُ فهْم واحد منا، أعني أنّ الأشياء بأسرها، المصنوع منها بيد الإنسان والذي ليس كذلك، تجلو قوةً فوقنا.

براهمان الأوبانيشادي و إيشفارا البوراني(١٤)

في أوبانيشاد بريهادارانياكا نقرأ حواراً يُسأل فيه ياجنيافالكيا السؤال الفاصل: كاتي ديفاه، كم الديفات؟ يبدأ الجواب بشاهد من نص فيدي: «ثلاثمئة وثلاثة وثلاثة آلاف وثلاثة» بعد الإلحاح ينقص العدد إلى ثلاثة وثلاثين ثم إلى ستة ثم إلى ثلاثة ثم إلى اثنين ثم إلى واحد ونصف وأخيراً إلى واحد. «أيها هو ديفا الواحد؟» ويجيب: «بْرانا (النَفَس، الحياة). البراهمان.

إنّه يدعى تيات (ذلك)». مع أنّ الديفات لم تفتأ تظهر في أفعال القرابين والمناظرات الدينية فإنّ مسألة «من هو الله؟» يجاب عليها هنا بالمصطلحات التي ظلت هي الجواب الهندوسي منذئذٍ. إنّ براهمان، اللفظ الذي لا ترجمة له، المطابق للكلمة الموحى بها وينطق بها البراهمة، المطابق لنفس كل الأشياء، ولخالق العالم وحافظه، وللمبدأ الداخلي للكون، إنّه يغدو المصطلح الذي صار عليه مدار النظر الديني الرفيع طوال آلاف السنين وما يزال هو المصطلح الذي يُدل به على الكائن الأعلى. ما فتئ براهمان محتفظاً بهالته من جهة ما هو شيء بلا تعيين على وجه التمام، شيء روحاني يفوت إدراك العابد العادي. المصطلحان اللذان يستعملان للتعبير عن الكائن الأعلى في تعيينه قديمان بالقدر نفسه من القدم: إيشا أو إيشفارا(١٥)، الرب، أو بهاغافان، المحمود، هذان لقبان للكائن الأعلى يطلقهما الهندوس عليه إلى يومنا هذا.

إنّ الاسم الذي يُقرن بهذا اللقب قد غدا الآن ذا أهمية قاطعة. إذا كان ريشي (الحكيم) الفيدي قد تحفّظ من أن يقرن الأسماء بلقب ديفا، بالنظر إلى أنّ تعددية الديفات قد بدت أمراً طبيعياً بل ضرورياً لإدراك الأوجه المختلفة للواحد الذي لا اسم له، فإنّ تعدد الأرباب قد رأى فيه اللاهوتيون الجدد أمراً محالاً من الوجهة الذاتية فأصروا على أنّ الواحد، الذي قرنوا به لقب إيشفارا أو بهاغافان، هو الواحد وحده- لما كان براهمان هو بالضرورة واحداً فقط، فإنّه يتطابق في غاية أمره مع الرب.

إنّ التلازم التخارجي بين لقب الرب وبين اسم واحد معلوم قد أفضى إلى نشوء أديان متخارجة(١٦)، مدار العبادة والميثولوجيا فيها هو على الله الواحد، فتُخرج بذلك آلهة الأديان الأخرى وتعدها كائنات ثانوية.

إنّ المحاولات المتأخرة التي أريد بها أن يُجمع بين تقاليد شتى (جمعاً نظرياً وهو

أضعف الإيمان) وأن يُعد أربابها المتنافسون شركاء متساوين في قوة إلهية واحدة في تريمورتي[١٧] قد أدت بدارسي الهندوسية من الغربيين إلى خاطئ الاستنتاجات أحياناً.

نعم، إنّ النصوص الهندوسية تتحدث عن ثالوث فيه براهما الخالق، وفيشنو الحافظ، وشيفا المخرب، وهؤلاء يقومون بأفعال الله الواحد، ولكن هذه النصوص جميعاً هي من تقليد واحد من التقاليد التي يطابق فيها الأعلى واحداً من تلك الأسماء أمّا الأسماء الثلاثة المنفصلة فما هي إلا أوجه مختلفة للكائن نفسه.

إنّ بعض صيغ تريمورتي المعروفة يسهل التعرف عليها بوضوح من جهة ما هي تعابير فنية عن الصيغ المختلفة لإيشفارا واحد دون سواه.

ليس لبراهما، أول الثلاثة، اليوم أتباع يستحقون الذكر؛ وليس في الهند هياكل يُتعبد له فيها إلا قليلاً. يرد ذكره في ملحمة مهابهاراتا باسم بيتاماها، الجد، والمرشد للريشيين في أمور الدين. في لاهوت أصحاب فيشنو، يصور جالساً على عرش من زهر النيلوفر ينمو من سرة فيشنو ويصيغ للعالم هيئته.

شيفا[١٨] هو اليوم الله الواحد والرب لملايين كثيرين من الهندوس. أبرز رموز شيفا وأشهرها في الغرب، بفضل كثرة تصويره في الفن، هو ناتاراجا، ملك الرقص. يرد في البورانات ذِكر تاندافا، رقصة خراب العالم، وليلا، رقصة شيفا المغرم.

تروي إحدى الأساطير من جنوبي الهند أن أعداء شيفا قد رموه بمهالك شتى، وفي آخرها أرسلوا عليه الشر مجسداً في موياكا القزم، لكن شيفا أخذ في رقصه الكوني فقهر القزم وبذلك أعتق العالم.

خُلدت هذه الواقعة بتماثيل كثيرة نجدها في جنوبي الهند، ويُسبغ عليها في لاهوت أتباع شيفا الكثير من المعاني: «من الطبل يظهر الخلق، ومن يد الأمل يُستمد الحفظ، ومن النار يستمد الخراب، ومن القدم المنغرسة فوق مولاياكا يستمد دمار الشر، والقدم المرفوعة تهب النجاة». ابتسامة شيفا تبين سموه، والأعين الثلاثة تؤوّل بالشمس والقمر والنار أو بقوى شيفا الثلاث: الإرادة والعلم والعقل.

الجماجم المنظومة عقداً يطوق عنقه تسوّي بينه وبين الزمان وهلاك الكائنات بأسرها. الجمجمة المفردة على صدره هي جمجمة براهما، خالق العالم- الكائنات بأسرها هالكة، ما خلا شيفا فهو أبدي.

يقول ت.سوامي أحد أتباع شيفا: «العثور عليه صعب، لكنه مقيم في قلب الصالح. وهو داخل فيشنو وبراهما، وفي اللهب

والريح، وفي البحار الصاخبة وفي الجبال الشامخة».

أهم تجليات شيفا، وجوده وموضوع عبادته عند محبيه، هو لينْغا[١٩]. فهذه هي «الصورة» التي ليس سواها صورة لشيفا الكائن المطلق الذي لا صورة له، وتكون في الحرم الأقصى من هيكل شيفا. لا ريب في رجوع لينغا إلى أصل فالوسي[٢٠]، بيد أنّه يمكن القول باطمئنان أنّه لا يستدعي تلازماً فالوسياً في أذهان العبّاد.

فيشْنو[٢١] هو الأكثر اتباعاً، إذ أن نحو ٧٠٪ من الهندوس هم من أتباعه، وينقسمون فرقاً ومدارس فلسفية عدّة. فيشنو هو واحد من الديفات المذكورة في ريغ فيدا؛ وتوحي بعض كتب براهمانا أنّ أصل فيشنو شمسي. لكن الاسم فيشنو، ويترجم «الساري في الكل»، ربما هو صياغة سنسكريتية لاسم درافيدي أقدم منه هو فين ومعناه السماء الزرقاء، ومما يؤيد هذا الرأي أن فيشنو ما يزال يصبغ إلى يومنا هذا بالأزرق القاتم.

اندمجت في دين فيشنو طريقتان هما نارايانا وفاسوديفا كريشْنا[٢٢]، في الزمان المتقدم على المسيحية. ومما يقرب من المقطوع به أنّ أساس الطريقة الثانية هو شخص تاريخي يدعى كريشنا[٢٣]، وهو بطل من عشيرة فريشتي من قبيلة يادافا التي كانت تسكن في ما جاور ماتورا وهي مدينة من أقدم المدن في الهند.

لعلّ تقليد فيشنو هو التقليد النموذجي بالنسبة إلى جميع المذاهب الهندوسية، وإنّ أعظم كتب الأدب الهندي تعكس ذلك بوضوح. مهابهاراتا هو كتاب في معظمه ينحو منحى دين فيشنو. رامايانا تتناول سيرة راما وهو من نسل فيشنو. بهاغافاد غيتا، وهو أكثر الكتب شعبية، هو كتاب مقدس مداره على كريشنا بصفته تجلياً لفيشنو.

لصور فيشنو أهمية خاصة؛ إنّها الحضور الواقعي والفيزيائي للإله، الذي جسده هو الأرض والنفوس نفساً نفساً. يثني على فيشنو محبوه بآلاف الأسماء التي تمجد مناقبه الأسطورية وتعدد صفاته الإلهية[٢٤]. هاهو إكاناتا، من شعراء القرن السادس عشر ينشد:

أتعلمون كم هو حلو مخيض السائل «غي»؟ كذلك هو النعيم الذي يناله الطالب حين يكشف المحتجب عن صورته.

إنه قاتم، قاتم هو الذي لا يُعرف البتة ومسدود الطريق أمام الفكر والكلام: الكتب المقدسة صامتة وكتب فيدا لا تنبس بكلمة. ليس كذلك الذي قد ظهر، يالسطوعه! يالقربه! ظمأنا يُطفى إذا ظهر، هو العزيز على قلبنا. الكامل أبداً والنعيم الأبدي والوجود والفكر- انظروا إنّه غوفيندا(٢٥)،

مصدر الابتهاج والسرور. القوة والشجاعة، والشــرف، والروح المحمــودة- انظروا كيف نشهــد في إلهنا كلّ هــذا. لو لمحت من اللّه لمحة إذاً لــردّ عليّ بصري. لقد خلصت من شِباك الحياة،؛ ذنوب حواسي عُفي عنها. في ضوء المصباح تظهر الأشياء المحجوبة كلها- هكذا أمري متــى فكرتُ في إلهي؛ اللّه جاء إلى هنا من بعيد!

في مذهــب شاكتي، الإلهــة الأنثى هي الكائــن الأعلــى، وتصور أحيانــاً مع غلام ذكرٍ لها هو دونها، وتصور أحياناً من دونه. لفظ شاكتــي معناه «القــوة» المشخصة في الإلهة، وهي الأم الإلهيــة التي تنسب إليها جميع أفعال فيشنــو أو شيفا عند أصحاب المذهبين: أعني خلق العالم وحفظه وتخريبه، وكذلك التلبيس والعتق.

لكثير مــن القبائــل الهنديــة القديمة الإلهات التأمت عبادتها مع الزمان في عبادة الأم العظمى. وممــا لا ريب فيه أنّ الآريين كانــوا على وجه العمــوم معادين للمذاهب التي تتخذ الأم إلهة، ومع ذلك فإننا نجد في مهابهاراتا أنّ دورّغا قد ظهرت إلهة للحرب، تفوق في أفعالها إندرا.

❀ ❀ ❀

الإله في الهند ليســ ميتاً ولا هو مجرد ذكرى من الماضي. في كل مكان من الهند اليوم الكثير من «الآلهة الأحياء» و«التجسيدات»؛ يدّعــي بعضها أنّه استمــرار للنسل القديم لفيشنو أو شيفا، فيمــا يقنع غيرها بادعاء أنّه الأعلى في بدن بشري.

تذخــر كثير من منــازل الهندوس بزينة مــن الرسوم الملونة للكثير من آلهة الهندوس وزوجاتهم، وكثيراً ما يكون معها آلهة وإلاهات لأديان أخرى وصور لأبطال معاصرين. على هذا النحــو، فإنّ المرء يجــد شيفا وفيشنو وبجانبهما يسوع وزرادشت وبوذا وماهافيرا وغاندي وجواهــر لال نهرو، وغيرهم كثير. لكن لو سئل أحد الهندوس، حتّى الأمي ابن القرية، عن الآلهة الكثيرة لأجاب: بهاغافان إك هاي- الــرب واحد. لعله لــن يستطيع أن يعلل تعليــلاً لاهوتياً كيف للآلهة الكثيرة والإلــه الواحــد أن يجتمعوا معــاً ولعله لن يكــون على يقين من أمــر التراتب الحاصل بين التجليات الكثيرة، لكنه يعلم أنّه في غاية الأمر ليس سوى واحد وحده، وأنّ الأشخاص الكثيرين يندمجون في الواحد على نحو ما.

يعلل اللاهــوت الهندوسي، بسبل شتى، وحــدة براهمــان في تعدّد إيشْتــا- ديفاتا: ينبغي للحاجــات النفسية المختلفة أن تُشبع على نحو مختلف، وينبغــي للتقاليد المحلية والوحــي الخاصــ أن يوفّق بينهــا، والذي لا ينالــه الوصف لا يمكــن الإفصاح عنه - بالمعنــى الحرفي- إلا بــآلاف الصور. إن ما تسمى ساهاسْرا-ناما-- وهي مدائح بآلاف

الأسماء تتلا تمجيداً لكل واحد من الآلهة الكبرى- تنطوي على تداخل عظيم: كل واحد منها يسمى خالق الكون وحافظه ومخربه، وكل واحد منها يدعى الحق والنعمة والنجاة. كل واحد منها هو، في آخر الأمر، نفس الآخر: واحد[٢٦].

الهوامش

١- كتب فيدا هي أقدس الكتب عند الهندوس، ويرسم البيروني هذا اللفظ «بيذ» ويقول إن معناه هو العلم بما ليس معلوماً وينقل عن الهندوس اعتقادهم بأنه مأخوذ من فم براهم- المترجم.

٢- من غير إنكار أن تكون آلهة غيره- المترجم

٣- مع إنكار أن تكون آلهة غيره- المترجم

٤- الإيتمولوجيا هي دراسة أصل اللفظ وتاريخه- المترجم

٥- يرسم البيروني لفظ ديفا هكذا: «ديو»، ويقول إنهم أجناس الروحانيين، وهم الملائكة بلا مادة، نالوا رتبتهم بالعمل وقت التأنس وخلفوا الأبدان وراءهم- المترجم.

٦- يدعوهم البيروني «رشين»، ويقول هم الحكماء، وهم على إنسيتهم أفضل من الملائكة بسبب العلم الذي تستفيده الملائكة منهم، فليس فوقهم إلا «براهم»- المترجم.

٧- هيكل لكل الآلهة- المترجم.

٨- إندرا: يلقبه البيروني برئيس الملائكة ورئيس العوالم والرئيس، ويقول إنه يأخذ ماء البحار بالسحابة ويرسلها أمطاراً- المترجم.

٩- يقول البيروني إن «المعبود» تجلى بصورة إندرا لأحد النساك- المترجم.

١٠- أدعية وعزائم- المترجم.

١١- يقول البيروني «أكن» وهو النار- المترجم.

١٢- يقول البيروني إن الشريعة جاءت عن رشين- المترجم.

١٣- يقول البيروني إن «برن» هو صاحب الماء- المترجم.

١٤- أوبانيشاد هو الاسم الذي تدعى به الأجزاء الشعرية والنثرية الملحقة بكتب فيدا في آخرها. أمَّا بورانا فيرسمه البيروني «بران» ويقول إن معنى اللفظ هو الأوَّل القديم، «وهم كتب من عمل رشين، وهم كتب مسماة باسم حيوانات وأناس وملائكة بسبب اشتمالها على أخبارهم وبسبب نسبة الكلام فيها أو الجواب عن المسائل فيها إليهم»- المترجم.

١٥- يرسمه البيروني «إيشفر» ويقول إن معناه المستغني الجواد- المترجم.

١٦- أهل كل دين يُخرجون من الدين مَن ليس منهم- المترجم.

١٧- صيغة مثلثة- المترجم.

١٨- يذكره البيروني بلقبه «مهاديو» (ماهاديفا)- المترجم.

١٩- يرسمه البيروني «لنكك» ويقول هوصورة مذاكير مهاديو- المترجم.

٢٠- نسبة إلى فالوس وهو لفظ يوناني معناه عضو الذكورة- المترجم.

٢١- يرسمه البيروني «بشن»- المترجم.

٢٢- صار نارايانا وفاسوديفا (ويرسمه البيروني «باسديو») لقبين لفيشنو. يقول البيروني إن في كتاب بشندهرم: «بشن وهو نارابن الذي لا أول له في الزمان ولا آخر»- المترجم.

٢٣- يظهر كريشنا بعد ذلك بصفته تجلياً من تجليات فيشنو- المترجم.

٢٤- ينقل البيروني عن أحدهم: «ليس إلا بشن فقط، وما سواه باطل؛ بشن في كل مكان»- المترجم.

٢٥- لقب للرب إيشفارا- المترجم.

٢٦- يقول البيروني: اعتقاد الهند في الله سبحانه أنه الواحد الأزلي من غير ابتداء ولا انتهاء- المترجم.

المصدر

- Klostermaier, Klaus k. A Survey of Hinduism, 3rd ed. Albany: State University of New York, 2007.

- استفــدت أشياء من الكتاب القيّم «تحقيــق ما للهند» لأبي الريحان البيروني (توفي سنة ٤٠٣هـ)، وجعلتها في حواشي المقالة لوثيق صلتها بمضمونها- المترجم.